المشروع القومى العربى

لم يخفق المشروع النهضوى القومى العربى إنما الذى أخفق فهو المجتمع العربى الذى فشل فى صنع حضارته الجديدة، وهو مجتمع يعجز عن بناء أى طروحات سواء قومية أو غيرها، وحتى الآن تعجز الطروحات القطرية والمذهبية والليبرالية على تقديم البديل، ويخفق المشروع القومى على مستوى الفئات النخبة، أما القواعد الجماهيرية فالمشروع العربى والإسلامى فى أعماق قلوبها، وهى ليست بحاجة لنظرية لا للتاريخ ولا للسياسة لتسير فى التيار القومى الوحدوى، بل إنها لا تفهم التنظير ولا تميل إليه إن كل ما نحتاجه لتثبيت الفكر القومى هو أن تصل الجماهير إلى الممارسة الديمقراطية الحقة، وبعيدًا عن تحديد هويتنا التاريخية فإن القومية العربية بحاجة ملحة للتلاحم من أجل مواجهة التحديات التى تقابلها الأمة العربية فى وقتنا هذا وهى تحديات أغلبها اقتصادية، وفى حد ذاتها لا تنفصل عن الحاجات الاجتماعية، وبالتالى فالبعد الاجتماعى هو البعد الأهم فى عملية التحرر القومى، ونحن هنا لا نتكلم باللهجة التقليدية التى عفا عليها الزمن، والتى كانت تدور حول الاشتراكية والصراع الطبقى.

فزمن الأيديولوجيا قد ولّى سواء رضينا أم لم نرض ونحن لا نتكلم الآن عن فكر قومى فى مقابل فكر ليبرالى أم ماركسى أو إسلامى، فمن ناحية الإسلام فهو الأساس للثقافة العربية، ونحن إذ نتكلم عن اللغة العربية التى وحدت العرب منذ تاريخ قديم. فذلك لاعتمادها فقط لإحياء ثقافة الأمة وتاريخها، إحياء وعى الأمة بذاتها، ربما صار أكثر وضوحًا ونضجًا بعد التجارب والخبرات التى مرت بها الأمة، فلن نذهب

إلى التاريخ القديم لنقول نحن عرب، وأمامنا التجارب المريرة التى خضناها فى خمسين عامًا مضت، وسوف يطرح السؤال نفسه، لماذا تخلفنا فى كل مشروعاتنا مشروع الاستقلال الوطنى، ومشروع البناء الاقتصادى والمحافظة على أرض فلسطين، ورد الاعتداء عليها - ودخل العرب فيما بينهم فى حروب ومنازعات لا حصر لها، حتى تم اعتداء العراق على الكويت، وأخيرًا غزو الولايات المتحدة للعراق. ونتساءل هل ستظل الحال المتردية؟ وفى الإجابة على السؤال نظرة إلى المستقبل، ولها دورها فى إعادة إنتاج الوعى القومى، وليس فى إبداع نوع جديد من التكتل الاقتصادى المنقطع عن أية رسالة حضارية، وترجعنا الممارسة السياسية، ونحن نتعامل مع السياسة بدون شك إلى إطار أشمل هو الإطار الحضارى ونكتفى بطرح السؤال التالى: لماذا لم يقض أكثر من ألف عام من الانحطاط ومن الشرذمة السياسية نهائيًا على ظاهرة الرد التراثى والوحدوى؟ والإجابة تأتى من دراسة سعد الدين إبراهيم وتؤكد دون أى مجال للشك أن الجماهير مازالت تؤمن بالوحدة فهى صاحبة المصلحة الأولى فى تحقيقها، دراسة سعد الدين إبراهيم بعنوان «اتجاهات الرأى العام العربى ومسألة الوحدة» تمت فى عام ١٩٨٦م أى بعد أن منيت كافة التجارب الوحدوية بالفشل، يفيد الاستطلاع الأولى الذى شمل ١٠ دول عربية أن أكثر من ٧٧٪ من الرأى المستطلع أيد قيام وحدة سياسية عربية، مع الغلبة لفكرة الاتحاد الفيدرالى أو الكونفدرالى؛ ومع تراجع ملموس لمؤيدى الوحدة الاندماجية وهذا لا يقلقنا، فإن مع زيادة الوعى بالهوية التى فقدناها أو كدنا سوف يتغير حتمًا اتجاه الناس نحو صورة الوحدة وأمامنا تجربة الوحدة الأوروبية، كيف بدأت، وإلى أى مدى من التكامل انتهت، لقد تغيرت متطلبات الوحدة الأوروبية مع التجربة من السوق الأوروبية المشتركة فى الخمسينيات والستينيات إلى ما آلت إليه الآن من توحيد للعملة وإنشاء

برلمان أوروبى مشترك. وهى تسير بخطوات وئيدة ولكنها مؤكدة لتحقيق التكامل الذى تصبو إليه النخبة هناك قبل الجماهير، أى أن الآية مقلوبة فى أوروبا عنها فى مجتمعاتنا العربية - هناك النخبة تقود والجماهير تتبع، وهى على ثقة كاملة بالنخبة وهنا النخبة تعيق أى تقدم. والجماهير مازالت لا حول لها ولا قوة، وليس أمامنا إلا أن تخرج من بين صفوفها نخبة جديدة تحركها وتدفع بها إلى مقاومة الأوضاع الحالية فى سبيل بناء مفاهيم جديدة حضارية وثقافية تؤكد على وحدة المجتمع ووعى الشارع بمستقبل أفضل يسمح بالمشاركة وتفجير الطاقات، ورفع الجماهير من حالة الإحباط واللامبالاة والسلبية.

المقاومة من أجل تأكيد الفكر القومى

ويحاول أن ينظر كثير من المفكرين العرب فيعبرون عن الفكر القومى ضمن نزعات واضحة إلى إدخال النظرية السياسية فى الدولة وفى علاقات السلطة، وعبثًا يحاول البعض إعطاءه صورة الفكر الخالص المترفع عن الحوار السسيولوجى والسياسى، فالفكر القومى خالط الصراعات الأيديولوجية وتوزع القوميون على المواقع السياسية - الأيديولولجية المتعددة، وكان أكثرهم عددًا من تأثر بالماركسية، واتصف بنزعة توليفية بين القومية ومقومات الفكر الماركسى.

ومن خلال الحوار القريب بين الإسلاميين والقوميين ربما نخرج بتوليفة جديدة، لم تفصح عن طبيعتها وأبعادها، ومازال الفكر الليبرالى العلمانى أبعد ما يكون عن الفكر القومى الوحدوى متشبعًا فى أغلبه بأفكار جيل مضى رفع شعار القومية المصرية، وصب جام سخطه على الاتجاه الوحدوى عربى أو إسلامى.

إن الفكر القومى برىء من الخطايا التى ارتكبها نظام الوحدة السورية المصرية، ولا يمكن أن يحكم على فشل الفكر القومى بتجربة وحدوية

فريدة، ضمت دولتين عربيتين، كان النظام السياسى فى كل منهما يتخبط وهو يتحسس خطواته نحو نظام مستقر يقوم على نظرية أيديولوجية سياسية واضحة، نحن نظلم الفكر القومى إذا حكمنا عليه بما حدث فى أثناء تجربة الوحدة الوحيدة، قطعًا لم يكن هناك فى مصر أكبر دولة عربية أى وضوح للرؤيا حول مفهوم القومية العربية، بدليل انسحاب مصر السريع من المعركة القومية بعد رحيل عبدالناصر، والإنجاز الذى حققته الأمة العربية فى حرب أكتوبر سريعًا ما خفتت أضواؤه بعد انحياز مصر إلى المعسكر الأمريكى مبتعدة تمامًا عن التزامها القومى.

ولا يمكننا أن نرد إلى الفكر القومى العربى مسئولية سيطرة الطابع الدينى على الهوية، ومسئولية التنكر لحقوق الأقليات الطائفية، فهو الذى أصر على التمييز بين الإسلام كرسالة تاريخية وحضارية وبين الانتماء القومى الذى لا يقوم على أساس الانتماء الدينى والمذهبى والذى يكرس مساواة الأقلية بالأكثرية فى مشروع سياسى قومى واحد، وكان المفكرون القوميون العرب فى طليعة من انتقد بشدة الاستغلال الطائفى للفكرة القومية العربية، كما كانت الدولة القومية الأشد قمعًا لمنطق التفكير المذهبى.

وكما يبين العديد من الباحثين العرب، ليس انتشار الفكر الدينى وليد الإطار الأيديولوجى القومى بقدر ما هو أثر لأزمة الطرح القومى. إن كانت الأيديولوجية السائدة قد حاولت أن تتكيف مع الظاهرة الجديدة فالتراجع من القومية إلى القطرية لم يؤد إلى إلغاء مسألة الهوية فى المجتمع السياسى العربى، بقدر ما أحدث فراغًا سرعان ما ملأته الحركة الدينية التى استجابت بدورها لمتطلب نما دوره بتراجع أيديولوجية الدولة إلى القطرية، كما يدل على تواجد نزعة مستجدة إلى إثبات الذات الحضارية يتخذ شكلاً دينيًا بعد أن اتخذ طبيعة قومية أكثر اتساقًا.

لم تستطع الدعوة القومية أن تقنع الأقليات فى الوطن العربى بأن الوحدة فى مصلحة الجميع، وعلى الرغم من الشعارات القومية

التقدمية، ظلت هناك مشكلة فى العراق، بين العرب والأكراد، وفى سوريا احتل العلويون الحكم وعزلوا الفئات الأخرى. وفى الجزائر تبرز مشكلة البربر، وفى السودان مشكلة الجنوب. وتجاهلت الأنظمة العربية كل هذه الحساسيات المريرة، التى أنهكت جسد الأمة المريضة فزادت فى وهنه. وأهم مظاهر هذا الإنهاك ظهر مؤخرًا فى العراق، والأكراد يساعدون الأمريكان فى غزوه ويسهلون له عملية الغزو بكل الوسائل، كما حدث فى أفغانستان، حيث بدأ الغزو من قبائل الشمال المختلفة فى الأعراق مع بقية أهل أفغانستان، وفى السودان بعد أن دامت حرب أهلية لمدة عشرين عامًا، نجده اليوم على أهبة الانفصال، وفى الجزائر يطالب البربر بإحياء لغتهم الأصلية وفى التدريس بها فى مدارس خاصة بهم، كل ذلك يحدث والنخبة العربية لم تتقدم أبدًا بمشاريع ثقافية وسياسية واجتماعية لإغلاق هذه الثغرات التى نفذ منها الاستعمار الجديد إلى قلب الأمة العربية، بل إن هذه الصراعات الداخلية أضرت بعملية النهضة والتقدم على مدى الخمسين عامًا الماضية.

وماذا جنينا بعد إخفاق المشروع النهضوى العربى.. تدخل أمريكى سافر فى المنطقة يساند إسرائيل على طول الخط، بل أنه يريد أن يوجه النظم الثقافية والاجتماعية العربية كلها فى المنطقة العربية لخدمة إسرائيل والهيمنة الغربية، ولقد بلغت غطرسة إسرائيل فى السنوات الماضية وخاصة مع وصول بوش الابن إلى الحكم ذروتها الكبرى. ناهيك عن إملاءات أمريكا المتكررة على الأنظمة العربية. وكلما رضخت الأنظمة للإملاءات الأمريكية، زادت فى طلباتها والعرب صاغرون، وتحاول أمريكا أن تفرض على المنطقة رسالتها الحضارية المزيفة، فعلى سبيل المثال نذكر مشروع الاقتصاد الشرق أوسطى الذى يظهر بمظهر اقتصادى صرف، مع أنه يتأسس على قيم أيديولوجية قوامها النظرة الأيديولوجية الثقافية - الأخلاقية إلى محورية إسرائيل، ومشروع

الشرق أوسط الكبير ويعنى إسقاط القيم الثقافية الأمريكية على المجتمع العربى، وها هو كولن باول يصرح يوميًا تقريبًا بأن أمريكا تسعى لإدخال الديمقراطية (الأمريكية طبعًا) إلى دول المنطقة، وظلت أمريكا تطالب العراق بتدمير أسلحة الدمار الشامل وهو ادعاء كاذب اتخذته أمريكا لتبرير عملية غزو العراق - الذى تم أخيرًا بمعاونة الأنظمة التى كانت تدعى العروبة والقومية فى يوم ما.

ويتناول مصطفى الفقى فى كتابه «تجديد الفكرى القومى» مسألة عروبة مصر وهى تظل محل سؤال.

«تعتبر مسألة عروبة مصر قضية مطروحة حتى هذه اللحظة، ومازال هناك من يجادل داخل مصر وخارجها فى أولوية العروبة على غيرها من أركان الهوية المصرية ومظاهر التعددية فيها. وإذا كان عامل اللغة هو الفيصل فى تحديد قومية الأمم وشخصية الشعوب، فإن الأمر بهذا المفهوم يكون محسومًا، فمصر أصبحت عربية اللسان، يوم أن قبلت الكنيسة القبطية، مع بدايات العصر الفاطمى إقامة الصلوات باللغة العربية. وترجمة النصوص المقدسة إليها، منذ ذلك الحين تحولت مصر بكاملها إلى عروبة خالصة بالمعنى الثقافى الذى يلعب الدور الأساسى فى تحديد القومية.

ولكن الأمر بالنسبة لمصر والمصريين لا يمضى بهذه البساطة. فالمسألة مركبة إلى حد كبير، ولها تراكمات حضارية متعاقبة وتاريخية موروثة، تجعل مسألة العروبة فى مصر برغم كل ما نعرفه عن تجانس سكانها ونقاء لغتها قضية مطروحة يتم استخدامها سياسيًا من حين لآخر».

كلام مصطفى الفقى حتى الآن كلام كاتب محايد لا يقول لنا إذا كان صاحبه مع العروبة أو ضدها - وسوف يستمر كلام الفقى على هذا المنوال حتى آخر كتابه. وفيه معلومات مفيدة للقارئ، نرى جدوى سردها هنا.

«فالمصريون يظنون أن لديهم المقومات الذاتية التى تصل بهم إلى مستوى الأمة، وليس بعيدًا عنا، تلك السنوات القريبة فى مطلع هذا

القرن، حين تحدث المصريون عن «الأمة المصرية» فى خضم النضال ضد الاحتلال البريطانى حيث بلغت ذروة الحركة الوطنية فى الثورة الشعبية عام ١٩١٩ التى كانت تدور شعاراتها حول «الأمة المصرية» وزعيم الأمة سعد زغلول، كما استيقظت فى تلك الفترة نعرات تاريخية، ونزعات مصرية، فكانت أغانى سيد درويش تعبيرًا عن روح الأمة المصرية وجسَّد محمود مختار تلك الروح فى تماثيله الشهيرة. تبلورت من عشرينيات هذا القرن (القرن العشرين) حركة وطنية تستند إلى «مفهوم الأمة المصرية» ولا تبالى بغير ذلك من الانتماءات حيث كانت العروبة قضية غير مطروحة بالمضمون القومى المعاصر، والمفهوم السياسى الواضح. وكان شعور المصريين تجاه الأشقاء العرب يرتكز على مفهوم دينى ثقافى، فضلاً عن الارتباط الجغرافى، بل أن موقف حزب الوفد حزب الأغلبية على مسرح السياسة المصرية لأكثر من ثلاثين عامًا - لم يكن بطبيعته - خصوصًا فى سنواته الأولى - متحمسًا للاتجاهات العربية - قد استند الحزب عبر تاريخه، على مثلث فكر يتخلص فى الوحدة الوطنية المصرية - والليبرالية السياسية، والنزعة العلمانية التى حددت اختلافه عن أحزاب الحركة الوطنية التى سبقته وكانت ذات صبغة دينية.

ولا شك أن المثقفين المصريين - قبل ٢٣ يوليو - مسئولون بالدرجة الأولى عن ضعف جانب العروبة فى أركان الهوية المصرية، فلم يكن من المتوقع أن يعنى تيار التغريب، فى الثقافة المصرية، بفكرة القومية العربية، بل إن أديب مصر «العظيم» توفيق الحكيم قد خلط فى الطبعات الأولى من كتابه «عودة الروح» بين العرب والبدو، ورأى مصر مثل غيره من معظم مثقفى عصره - مستوى يعلو على غيره، من الكيانات السياسية المحيطة، وتضخمت لدى بعض المصريين مشاعر الإحساس بالاستعلاء، وترددت بينهم مقولات تتحدث عن التحيز المستمد من التاريخ الفرعونى الأكثر عراقة، والبلد المركزى الأكثر حجمًا والدور

السياسى الأكثر تأثيرًا على المستويين الدولى والإقليمى.

ما يقوله مصطفى الفقى ما هو إلا محض هراء، فى هذه الآونة كانت مصر مستعمرة، وكان الحكم فيها خاضع للمندوب السامى البريطانى، وكان الفساد يعم، والفقر ينتشر ويلغ غليان الشعب المصرى مداه، فلم تكن الدولة مستقلة بل مكبلة بمعاهدة ٣٦، مما أدى إلى قيام ثورة يوليو.

أما النعرة المتعالية فكانت تكمن فقط فى نفوس معظم الكُتَّاب والمثقفين والسياسيين الذين ظنوا أنهم أنبغ القوم وأكثرهم تمدينًا فى أمة كانت لها مجد تليد فى يومًا ما.

ونرجع مرة أخرى إلى مصطفى الفقى.

«والواقع أن الدولة الحديثة فى مصر التى بدأ ميلادها بدخول حملة نابليون بآثارها الثقافية الواسعة فى ذلك الوقت، ثم وصول محمد على إلى قمة السلطة. هذه الدولة قد تبلورت لها ذاتية سياسية وشخصية ثقافية جعلت النزعة الاستقلالية عن الدولة العثمانية مرادفًا للتحيز المصرى وإبراز لما يمكن التعبير عنه بكلمة «القومية المصرية».

لم يذكر لنا مصطفى الفقى اتجاه محمد على ليبسط سلطانه على الإقليم العربى، ووصوله إلى السودان والجزيرة العربية وبذله جهوده لضم العراق. والأهم من ذلك ما قاله إبراهيم باشا بأنه عربى وسيصل بجيشه إلى كل ناطق باللغة العربية - هذا دور مصر الحقيقى فى المنطقة - وهذا ما قاله جمال حمدان فى كتابه «شخصية مصر».

إن كل قائد مصرى عظيم يتولى حكم مصر شعر بعروبة مصر ودورها فى قيادة الأمة العربية، هكذا فعل صلاح الدين الأيوبى، وقطز، ومحمد على، وجمال عبدالناصر. وربما أيضًا فى عهد الفراعنة كانت مصر تتبوأ الصدارة، فى قيادة الإقليم، وانفتاحها عليه، والمستعمرون يعرفون أكثر من غيرهم هذه الحقيقة، ولذلك يسعون دائمًا إلى تحجيم مصر، ومنعها من الاتصال المباشر بالإقليم، ولما قامت مصر وسوريا

بحرب أكتوبر المجيدة تحقق النصر للأمة العربية بقيادة مصر. جرت أمريكا عن طريق محادثات كسنجر ورحلاته المكوكية لاحتواء مصر داخل حدودها، وفلحت فى مسعاها وعزلت مصر حتى انسحبت تمامًا من ساحة المقاومة العربية.

ونعود إلى مصطفى الفقى.

بل إننا نلاحظ أن تيار الثورة الشعبية ذاته، لم يجعل من العروبة شعارًا مطروحًا من قريب أو بعيد وتتضح هذه النقطة بجلاء فى تحليل الدكتور عبدالعظيم أنيس. إذ يقرر أنه «لم يكن.. غريبًا أن تكون قيادات ثورة ١٩١٩ فى مصر تتحفظ إزاء الفكر القومى العربى الذى نشأ فى الشرق ولم يكن غريبًا أن ينسب إلى سعد زغلول ما قيل أنه قاله عندما سئل عن رأيه فى الوحدة العربية (وما قاله أمر شائن لا يفضل ذكره هنا) خصوصًا، أن خطب مصطفى كامل، وعبدالله النديم العنيفة فى نقد المشارقة المقيمين فى مصر، كانت لا تزال حية فى الأذهان - ومع أن الشعب المصرى ظل شديد التعاطف مع نضال الشعوب العربية فى المشرق ضد الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى. ولكن كان هذا التعاطف شيئًا مختلفًا عن الالتزام القومى بالمعنى المعروف فى المشرق وبقى التيار الليبرالى المصرى مرتبطًا بفكرة الوطنية المصرية، التى أعادها أدباء مثل توفيق الحكيم إلى حدودها الفرعونية فى عودة الروح، كما أعادها طه حسين ثقافيًا إلى حدود بحر متوسطية فى «مستقبل الثقافة فى مصر».

وعلى الجانب الآخر فإن المفكرين والساسة الشوام كانوا يدركون بوضوح تركيز مصر على هويتها الإسلامية قبل هويتها العربية، لأن المصريين لم يدخلوا فى مواجهات حادة مع الأتراك المسلمين، على نحو يغذى لديهم شعورًا قوميًا عربيًا، بل تركزت الحركة الوطنية فى مصر ضد الغرب المسيحى حتى أن محاولة الملكين فؤاد وفاروق لاستعادة الخلافة

الإسلامية فى مصر، والإيحاء بعقد مؤتمرات إسلامية إعلامية فى هذا الشأن قد أدت كلها إلى تأكيد نظرة أهل الشام تجاه تلك الروح المصرية.

إذ يقول أنطون سعادة: «لأن القصد من إثارة مسألة الخلافة حسب وجهة النظر البريطانية هو أن تصبح الخلافة قوة سياسية، يمكن أن تؤثر على مجرى الأحوال الدولية والإقليمية فتصبح مصر اليوم (البريطانية) فى العالم الإسلامى ما كانته تركيا قبل الحرب».

بل أن سعادة يتجاوز ذلك إلى التعايش السياسى المصرى مع الوجود اليهودى فى فلسطين، عند بدايته، بتأثير الجالية اليهودية النشطة فى مصر اقتصاديًا وسياسيًا وبتأثير بعض الزعامات المصرية التى كانت متحفظة تجاه آية مواجهة مع اليهود فى فلسطين باعتبارها قضية مشرقية لا داعى لأن تتورط مصر فيها، ولم يكن شعور بعض المثقفين المصريين فى البداية بعيدًا عن ذلك، حتى أن عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين قد دعى للمشاركة فى احتفال افتتاح الجامعة العبرية فى القدس من منطلق عالمى ثقافى بحت، وهو أيضًا الذى ترأس مجلة «الكاتب المصرى» فى القاهرة والتى وقف وراء تمويلها بعض اليهود. وأخذ البعض عليها أنها كانت محاولة مبكرة لتكريس التعايش بين اليهود والعرب. ولنتأمل هنا ما قاله أنطون سعادة فى هذا الشأن «ما هى الأسباب التى حملت مصر على تغيير سياستها؟ فتهتم الآن هذا الاهتمام الفجائى المباشر بالمسألة الفلسطينية، بعد أن كانت راضية عن الازدهار اليهودى فى فلسطين، حتى أنها أرسلت من يمثلها فى تدشين الجامعة العبرية فى القدس».

وفى عهد عبدالناصر تحولت مصر إلى دولة تقود العروبة، وتقود حركة الوحدة، كما لم تفعل دولة عربية من قبل – ولكن بعد رحيله انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب كان هناك السادات الذى اتصفت فترة حكمه بالاقتراب أحيانًا والابتعاد أحيانًا أخرى من الدول العربية، وفقًا لتحولات النظرة المصرية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى، وبقدر

ما كانت كامب ديفيد رؤية مصرية، عبر عنها السادات فى وقته كحل واقعى للصراع الطويل - إلا أنها كانت بمثابة صدمة للعرب، أعادت من جديد فتح ملف عروبة مصر، حيث دار حوار بين المثقفين المصريين والعرب وأصبح السؤال عن هوية مصر مطروحًا من جديد.

يتحدد البعد أو القرب من الفكر القومى فى مصر حسب الأهواء الشخصية للحاكم الفرد المستبد الذى يأمر فيطاع، فى عهد عبدالناصر قالوا للمصريين كونوا عربًا فصاروا عربًا، وقدمت مصر فى عهد عبدالناصر كل عون ومساندة لقضايا الأمة العربية من الخليج إلى المحيط، وساهمت إسهامات مباشرة فى تحرير كل جزء من الوطن العربى بدءًا من تحرير الجزائر حتى تحرير اليمن الجنوبى الذى لم تشأ قدرة الله أن يرحل عبدالناصر قبل أن يشاهد هذا اليوم الموعود فى تاريخ الأمة العربية ويمتد زخم القومية العربية حتى حرب أكتوبر، فيشارك العرب كل العرب فى المعركة ويتحقق هذا النصر الكبير.

بعد ذلك ينقلب السادات ١٨٠°م، ولا يقول أحد أنه كان على حق، فلم توافق الدبلوماسية المصرية العربية على قرارات السادات، ويستقيل إسماعيل فهمى فى مصر، ومحمد إبراهيم كامل الذى صاحبه فى مفاوضات كامب ديفيد، بعد ذلك يستقيل محمد رياض، ولا يقبل أى دبلوماسى مصر وطنى أن يتحمل وزر السياسة الخارجية للسادات الذى يكلف أحد ضباط القوات المسلحة بالقيام بمهام وزير الخارجية وهو كمال حسن على.

ويختار السادات طريق الارتماء فى أحضان أمريكا ويجر معه طبقة المثقفين المرتزقة أولاد وأحفاد الأيقونات الثقافية السابقة التى ذكرها تقرير مصطفى الفقى، الذين عادوا العروبة والإسلام. يدعون اليوم لثقافة ما قبل الثورة لترجع مصر ومعها العرب خمسين عامًا إلى الوراء، والعالم يتقدم بسرعة الطائرات النفاثة والصواريخ عابرة القارات، وصواريخ غزو الفضاء، ونحن نقعد فى المقاعد الخلفية نتفرج على

الاستعراض العلمى التقنى العظيم الذى تقدمه دول العالم من الصين شرقًا مرورًا باليابان والنمور الآسيوية إلى أوروبا حتى نصل إلى الولايات المتحدة عملاق التقدم العلمى والتقنى.

وتعلو نبرة جديدة فى الإعلام المصرى - «المصريون أهم» بغرض دغدغة عواطف المصريين - إلى مصر أولاً يطلقها الرئيس فى إحدى خطبه أمام القوات المسلحة، وكأنه يؤكد لهم أن الجيش المصرى لن يحارب مرة أخرى من أجل الأمة العربية وأن مصر نفضت يداها من المشروع القومى.

المقاومة ومأزق الأمة العربية

والشعوب العربية فى مأزق، فهى أمام معركة فرضت عليها من جديد، الغزوة الاستعمارية الجديدة التى فتح لها السادات بتصرفاته الرعناء الأبواب، وصرنا أمام ادعاءات جديدة يطلقها ضعاف العقول من ثقافة السلام وحوار الحضارات، ولقاء الأديان وكلها مترادفات تريد أمريكا أن تغرسها فى الثقافة العربية لتمهد لثقافة جديدة أمريكية لا نعلم معالمها بعد، ونحن أمام تدخل لتغيير المناهج الدراسية وادعاء باطل بالديمقراطية التى سوف تصدرها لنا الولايات المتحدة.

للأسف الأمة العربية معرضة للفناء وقدرها أن تدخل فى معارك جديدة ضد الاستعمار الوافد، وتقدم مزيدًا من الضحايا والشهداء، وهذا ما يجب أن تفعله الأمة فى محنتها الحالية. ولكن الأمة فى حالة عجز تام وكأن المواطنين لا يحسون بالخطر الذى يحيط بهم، ويؤثر على حياة كل فرد منهم تأثيرًا مباشرًا، لم تعد الشعوب العربية تعى حقيقة الموقف - فقدت الأمة الشعور بالذات، لا تستوعب، ولا تدرك وكيف تفعل وهى لم تتعلم أن تستوعب أو تحلل أو تدرك، تعالوا معى لقراءة مقال لأحد كبار الكُتّاب فى مصر، وعالم علم النفس الجليل «مصطفى سويف».

«الآن نعود إلى مواصلة الحديث من حيث توقفنا أن أقبح القبائح التى تعرضت لها شعوب الأرض على امتداد النصف الثانى من القرن العشرين كانت هى الحرب الباردة التى بدأت فعلاً يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ عندما أسقطت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية فوق هيروشيما فى اليابان، فكان هذا إيذانًا بدخول العالم فى أتون مناخ سياسى جهنمى لم يعهده من قبل».

حينما يقول أستاذ جامعى هذا الفكر السطحى لشباب مصر والعالم العربى يجرهم إلى الاعتقاد فى بشاعة القوتين العظميين ولن يمتد بهم التفكير إلى أبعد من ذلك، فهو لم يتحدث عن صراع البلاد المستعمرة من أجل نيل حريتها والمحافظة على ثرواتها التى كانت تنهبها الدول الإمبريالية - وهو لم يشرح كيف تكونت مجموعة عدم الانحياز لتقف بين الكتلتين فى سبيل الحفاظ على استقلال دولها، ولم يتكلم العالم الكبير عن المقاومة والكفاح ضد الاستعمار فى دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ولم يذكر شيئًا عن الحرب الكورية، وحرب فيتنام، واغتصاب فلسطين، وثورة التحرير العربى، والنهضة العربية والكفاح العظيم الذى قام به زعماء الدول غير المنحازة: ماو ونهرو وتيتو وعبدالناصر وسوكارنو ونكروما وكاسترو وبن بلا وبن بركة وعشرات غيرهم قادوا دولهم من أجل الحرية والاستقلال. ولم يحلل السياسات والاستراتيجيات التى أسست لهذا الصراع - ولماذا فشلت الثورة العربية حتى وصلنا إلى الحالة المتردية التى نحن عليها الآن، فى حين أن الثورة نجحت فى الصين، وفى بلاد أخرى كثيرة، ولم يقل لنا العالم الكبير لماذا لم تغز أمريكا كوريا الشمالية حتى الآن فى حين أنها أسرعت بغزو العراق والمبرر واحد فى الحالتين، امتلاك أسلحة الدمار الشامل.

ولم يقل أنه فى ظل الحرب الباردة كانت دول أوربا تسعى إلى إقامة أوربا المتحدة، ونحن فشلنا فى إقامة أى نوع من التعاون أو التكامل، ثم

ما قاله الأستاذ العالم يناقض تمامًا بكاء العالم الثالث الآن على انهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان يمثل خط الدفاع الأول ضد الهجمة الأمريكية لاقتناص الشعوب الضعيفة واحدًا بعد الآخر.

ولنذهب فى مقال العالم الكبير إلى منطقة أخرى وفيها يتكلم عن حكم عبدالناصر لمصر، وبعد أن يتكلم عن عبادة الفرد يتركها إلى قضية أخرى، قضية غلبة أسلوب رد الفعل (مقارنًا بأسلوب المبادرة بالفعل).

«فى ميدان العمل السياسى هكذا جاء كثير من القرارات من هذا القبيل، قرار حل جماعة الإخوان المسلمين ردًا على حادث الاعتداء على عبدالناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤، وقرار تأميم شركة قناة السويس ردًا على قرار البنك الدولى بالانسحاب من تمويل مشروع إقامة السد العالى، وقرارات التأميم المسماة بالاشتراكية الصادرة فى عام ١٩٦١ وقد جاء توقيتها على ما قيل من أن بعض أغنياء مصر أظهروا شماتة فى فشل مشروع الوحدة المصرية السورية».

وفى اعتقادى أن قرارات التأميم صدرت فى يوليو ١٩٦١ فى حين حدث الانفصال فى سبتمبر ١٩٦١.

وعلى كل حال فإن ما جاء فى المثال يدل على سذاجة فكرية متأصلة فى فكر العالم الكبير. نحن فى أشد الحاجة إلى مقاومة هذه الأفكار وإزاحة أصحابها من الساحة الثقافية، ونحن نأسف أن صحافة الشللية تسمح بنشر مثل هذا الحديث الساذج لكبار السن الذين فاتتهم الفرصة وظلوا فى أماكنهم جامدين ومتجمدين. ولكنهم مازالوا يحلمون بدور يقومون به فى هذا الوطن المسكين «هى فى الوقت نفسه تمنع نشر مقالات الكُتَّاب الشبان - إن المجلة التى كتب فيها العالم الكبير مقاله، تتفق مع بعض الكُتَّاب يكتبون فيها مقالاً دوريًا فى كل عدد وإذا قدم دخيل عليهم مقالاً يعتذر له بأن المجلة تقوم بتكليف الكتاب. وهذا اتجاه معيب يجب أن يقاوم، وبكل شدة.

مقاومة التخلف والجهل والجمود

كنا نتمنى أن يتكلم العالم الكبير عن الصرح الصناعى العظيم الذى أقامته ثورة يوليو، وهو عماد الاقتصاد المصرى، وعن جيش ثورة يوليو الذى حارب فى أكتوبر ٧٣، وإنه انتصر فى الحرب بعد أن مُنى بالهزيمة فى عام ٦٧، ولكنه قام واسترد عافيته فى الحرب الأخيرة.

ولماذا لا يذكر العالم أن قوانين الإصلاح الزراعى وتوزيع الأراضى على الفلاحين هى التى مكنت هذه الفئة العريضة أن ترسل بأبنائها إلى الجامعات، ومعظم المسئولين فى مصر الآن من أبناء هذه الطبقة، وإن كان هناك تدهور فى السياسات العامة فى مصر فذلك يرجع إلى أن هؤلاء المسئولين الذين صنعتهم الثورة خانوا مبادئ الثورة، معظم خريجى الجامعات من أبناء هذه الطبقة خذلوا الثورة، فكانت الإدارة السيئة والمستوى المهنى المتدنى - وعدم تطوير المصانع التى استجلبت من الخارج وركبت فى مصر، وظلت كما هى، عفا عليها الزمن - ولم يحدث أى إنبات فى مصر للتقنية ولا حتى تطويع التقنية المستوردة، وتعديلها وإصلاح ما عطب منها، والعيب هنا ليس عيب ثورة يوليو، ولكنه عيب الجامعات والمجتمع العلمى، ومراكز البحوث ومعاهد التعليم، ومؤسسات أخرى كثيرة تعمل على تكوين القوى العاملة.

فى بداية الخمسينيات أقمنا المركز القومى للبحوث، أعد له العالم الكبير المرحوم أحمد زكى، وخطط على أن يكون مخالفًا فى توجهاته عن الجامعات، وأرسل البعثات فى المجالات التطبيقية المختلفة، الجلود، الزجاج، صناعة المعادن، والصناعات الدوائية والغذائية، والحراريات.. إلخ.

وأنشأنا هيئة الطاقة الذرية، فى نفس التاريخ الذى أقامت فيه الهند مؤسساتها للطاقة الذرية، وصلت الهند إلى صناعة القنبلة الذرية وفشلنا نحن حتى فى عمل أبحاث متقدمة فى الطاقة الذرية، ولما تدهورت حالة المفاعل النووى الذى بناه لنا الاتحاد السوفيتى، التجأنا إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية لتساعدنا فى بناء مفاعل نووى جديد.

وفشلت كل خططنا لرسم سياسة مثمرة للبحث العلمى، ربما نكون قد فشلنا تمامًا فى إيجاد علاقة بين البحث العلمى والصناعات المختلفة.

وتجرنا هذه النقطة لننتقل من كلام عن القومية العربية ومقاومة الاستعمار، إلى مقاومة التخلف والجهل والجمود فى حياتنا.

لن يستقيم حال الجامعات المصرية، مالم تحاول فى تغيير طريقة معالجة البحث العلمى وبرامجه، ولن نبنى البرامج المثمرة طالما لا نعرف أساسيات العلم والمعرفة العلمية، لم تعد البلاد المتقدمة تركز على البحوث الأساسية وبعضها يوزع جهوده وميزانياته فى مراكز البحث والجامعات بين الأبحاث الأساسية والأبحاث التطبيقية، والبعض يرى أن الموجود على الساحة العلمية كمٌ من المعرفة الأساسية لا حصر لها، ولم يعد خافيًا من المعرفة الأساسية ما يستحق أن يبذل الجهد وينفق المال من أجل البحث عنه، وما علينا إلا أن نستفيد من الكم الهائل من المعرفة فى عمل تطبيقات جديدة نافعة.

تكررت المؤتمرات حول تطوير البحث العلمى بالجامعات على مدى العقدين الماضيين، وخرجت كلها بتوجيهات تبدو جميلة ومفيدة، ولكن لم تجد طريقها للتنفيذ - ويستمر حال البحث العلمى على ما هو عليه من رداءة وسطحية مطلقة.

بعد حوالى ثمانين عامًا منذ إنشاء الجامعة فى عام ١٩٢٥ بكليتى الآداب والعلوم لم يعط البحث العلمى نتائج ملموسة تضع بصماتها على

تنمية المجتمع، والباحثون يسيرون على النمط نفسه، لا تطوير ولا تجديد، لم يتلمسوا عدم جدوى الأبحاث الحالية، وحتى لو شعروا بالمأزق الذى هم فيه يقفون حيارى لا يعرفون كيف الطريق للإصلاح. وهنا يتضح مدى فائدة الثقافة العلمية، لو عرفت الجماهير أهمية البحث العلمى ومدى فائدته لحياتها، وأن نتائج الأبحاث تؤثر إيجابيًا فى كل نواحى التنمية، فى الصحة، والزراعة، والصناعة، وصناعة القوة، لتحركوا تجاه الجامعات يطالبونها بتغيير نمط الأبحاث الحالية، ولا توقفوا عن المطالبة والضغط على الباحثين حتى تظهر النتائج المرجوة - هذه من ناحية.

أما من الجانب الآخر، فيعتمد على الباحثين أنفسهم بطرحهم سؤالاً حاسمًا فى إشكالية البحث العلمى المنتج، والسؤال هو لماذا يقومون بالأبحاث؟ هل للترقية فقط؟ أم من أجل الرسالة التى يتحملون مسئوليتها؟ هذا إذا كانوا حقًا يشعرون بالمسئولية وينتمون إلى هذه الأمة.

لن يتغير شىء دون التوجه إلى تطوير برنامج لتكوين باحث علمى من نوع جديد، يعتمد البرنامج فى الأساس على وضع الأسس لتنمية قوى الإبداع لدى الباحثين، وهذا لا يتأتى إلا بتدريس موضوعات فلسفة العلم وتاريخه لجميع طلبة الجامعات. ولا نقصد هنا أبدًا إلى تجزئة المعرفة، بل أننا نؤكد على وحدة المعرفة، التكامل أولاً بين المواد فى كل من الجانب الطبيعى والجانب الإنسانى، ثم التكامل بين الجانبين الطبيعى والإنسانى، لم تعد المسألة مجرد كلام عن تداخل العلوم وتشابكها، بل يجب الوصول إلى الهدف المنشود برسم السياسات التعليمية التطبيقية التى تحقق الهدف.

وإذا أردنا أن نكوّن خريجًا واعيًا بوظيفته فى المجتمع فالطريق الذى يتبع هو طريق المعرفة من الجذور كيف تطور العلم؟ منذ أن بدأت

البشرية تمارس النشاط العلمى، لا مانع البتة أن نبدأ من الإنسان البدائى مرورًا بتطوره خلال العصور المختلفة - العصر الحجرى البرونزى - الحديدى، متعرضين لحضارات الشعوب المختلفة الآشورية، الصينية والمصرية القديمة، اليونانية ثم الحضارة العربية فى أوج تألقها فى عصورها المزدهرة.

وأخيرًا كيف نشأ العلم الحديث بداية من القرن السادس عشر مع ثورة كوبر نيكوس الكبرى - هذا السرد الذى يبدو جميلاً يتوجه فى النهاية تاريخ العلم فى القرن العشرين هذا القرن الذى شهد حقيقة معجزة التقدم العلمى؛ أروع ما يقدمه الإنسان فى إنتاجه العلمى، وبالأحرى التقنى، وهنا سندخل فى مناقشة ضرورية حول أى من الجانبين كان له السبق - العلمى أم التقنى - وخلاصة القول أن التقنية سبقت وظلت فى المقدمة حتى قرب منتصف القرن العشرين، عندها تلاحمت العلوم مع التقنية، وكأن هناك حركة جدلية بين الاثنين. لم يكن للمعرفة العلمية النظرية دور كبير فى اندلاع الثورة الصناعية، فهى قامت فى الأساس على نشاط المهنيين والحرفيين الذين فى الغالب لم ينالوا حظًا كبيرًا من التعليم وكانت الآلة البخارية قوة الدفع الكبيرة للثورة الصناعة التى تم تصنيعها على أيدى حرفيين، كانت كفاءتها ضعيفة فى البداية. ثم راحت تتطور حتى أصبحت أداة فعالة فى معظم الأعمال التى خدمتها. واستمرت الثورة الصناعية تشق طريقها إلى الأمام حتى بداية القرن العشرين دون الاعتماد على المعرفة الأساسية «البحتة»، فى بداية القرن العشرين بدأ طور جديد رائع للثورة الصناعية.

توصل ماركونى إلى صناعة الراديو، وكان يقوم بتجاربه فى غرفة فوق سطح منزله، وتمت تجاربه بنجاح حينما وفق فى صنع الجهاز الذى يرسل الإشارة الموجية ليستقبلها الجزء المقابل. رحل بعد اختراعه هذا

إلى الشاطئ الإنجليزى ليرسل أول إرسال لاسلكى عبر الأطلنطى إلى قارة أمريكا. وفى أوائل القرن أيضًا كان فورد يتحول بمصنعه للدراجات إلى أول مصنع للسيارات ثم جاء الإخوان رايت ليصنعا الطيارة... وهكذا كل هذا حدث ومن دون أساس علمى متين، وربما كانت ممارسة التجربة والخطأ هو الطريق لتحقيق كل الاختراعات الكبيرة التى غيرت من طبيعة المجتمعات، وزادت من رفاهية الناس واستمتاعهم بمزايا هذا الحشد من الابتكارات، فكان هناك أيضًا التلغراف، والهاتف، والمصباح الكهربائى وصناعة الأصباغ والأدوية التى كانت تستخرج من نباتات معينة كالصفصاف مثلاً فى حالة الأسبرين، وكان هناك أديسون العظيم الذى قدم للبشرية أكثر من ٢٥٠ اختراع وهو قد بدأ حياته بائعًا للجرائد فى القطارات، ويدل هذا العرض على أن الدراية التقنية كان لها السبق والفضل فى إنجاز التقدم الهائل الذى أحرزته الدول الصناعية الكبرى ولولا هذه الدراية لما توصلت تلك الدول إلى صناعة مركبات الفضاء والقطارات السريعة والسيارات المتميزة، والأدوية الجديدة، وأجهزة العلاج المتطورة، وعمليات زراعة القلب والأعضاء. كل ذلك يحدث بفضل تكيف الفنيين الغريب فى العالم المتقدم صناعيًا مع الفعل التقنى، ولولا هذه المقدرة الفائقة فى التعامل مع الأجهزة والآليات لما أمكن تطبيق الاكتشافات المعرفية الجديدة، ويرجع تخلفنا الرهيب فى الأساس إلى هذا النقص الكبير فى التعامل مع التقنية، بالإضافة إلى أن حديثنا ليس علميًا، الفكر فى قطاع كبير من أساتذة الجامعة يسير فى متاهات لا تتصل بالعلم بأى حال من الأحوال ومازلنا نتكلم بعقلية العصور الوسطى، نعيش نفس المعارك التى خاضها الإنسان فى هذه العصور، دون نقله سريعة إلى القرن الحالى - لقد انطلقت الفلسفة فى أوربا فى القرن السادس عشر لتوجه النشاط العلمى نحو صناعة القوة، وتحول فريق كبير من الفلاسفة لمناصرة العلوم الطبيعية والتجريبية وإبراز

أهميتها ومناهجها، كان هناك بيكون، هيوم، ديكارت، لوك، وكان معهم جاليليو، وبسكال، ونيوتن، وقبل ذلك كوبر نيكوس، وتيخه براهة وآخرون، وكان أهم ما اعتمدت عليه العلوم فى تقدمها الرياضيات والميكانيكا - وهكذا سارت البشرية من خلال قوانين كبلر إلى التصور الرياضى للكون، ثم جاءت قوانين الجاذبية الأرضية لتكتمل الصورة، ثم التمثيل الرياضى للموجات الكهرومغناطيسية الذى وضعه ماكسويل إلى نظرية الكم، ونظرية النسبية لأينشتاين وقانونه العام لتحويل المادة إلى طاقة.

وكانت الانطلاقة الكبرى للعلم وتخطيط البحث العلمى واهتمام الحكومات بوضع سياسات البحث العلمى مع اندلاع الحرب العالمية الثانية بعد أن اخترعت إنجلترا الرادار وأفلحت أمريكا فى صناعة القنبلة الذرية - بدأ بذلك عهد جديد للفيزياء واستخدام الطاقة النووية سواء فى الأغراض السلمية أو العسكرية، ولم يكن حتى الآن قد اقترن العلم بالتقنية اقترانًا كاملاً وتقدمت حالة العلم تقدمًا كبيرًا مع صناعة الحاسبات الآلية - واستخدامات أشعة × فى الكشف عن تركيب البللورات واستغلال نظرية الكم فى حساب الروابط الكيماوية وزوايا التركيب البللورى وقد استخدم هذا المجال الأخير فى فك لغز الحامض النووى. وبدأت من هنا ثورة كبرى فى العلوم البيولوجية وفى الوقت نفسه ظهرت بوادر الثورة الخضراء مع صناعة المبيدات والمغذيات الكيماوية. حدثت كل هذه التطورات العلمية والتقنية وعلماؤنا فى مقاعد المشاهدين. انغمسوا فى البحث العلمى، ولكنهم لم ينتجوا جديدًا مفيدًا للتنمية الوطنية - ساروا يقلدون تجارب الغرب، ويعيدون ممارستها على مواد جديدة، وفى ظروف مختلفة، وربما وصلوا إلى نتائج مبهرة ولكنهم عجزوا عن تحويلها إلى إنتاج تقنى أو صناعى، لفقر مريع فى الخبرة التقنية، ينقصهم التفكير العلمى العملى وظلوا يفكرون على طريقة الفكر اليونانى القديم أو على طريقة الفكر العربى النظرى

الوسيط - وليتهم استوعبوا ما أنجزه الرواد المسلمون الأوائل، ولعلى لا أكون مخطئًا إذا قلت إن أولئك وصلوا إلى إنجازاتهم الرائدة بفضل فكرهم الموسوعى - نعم نحن تقصنا الثقافة العامة ومازال باحثونا يغرقون حتى الأذنين فى التخصصات الدقيقة جدًا، وفى الكليات النظرية، يضيعون الوقت فى معارك جانبية حتى أوصلونا إلى حالة الأزمة الفكرية التى نشاهدها الآن. وهى تتجسد فى فقد روح المقاومة، كيف نقاوم وليس هناك الحد الأدنى من الاتفاق - كل يسير حسب هواه يذكر لنا معرفة منقولة عن الغرب، دون النظر فى مدى فائدتها لمجتمع مريض، متخلف. ولقد انتقل المرض الاجتماعى إلى قاعات الجامعة، وأقولها بكل صراحة أساتذتنا معوقون مصابون بضعف عقلى شديدعاجزين عن التمييز، وفقدوا القدرة على الإبداع.

وتكررت دعواهم بأنه ليس لدينا فلسفة عربية، ولا فلاسفة عرب، ومع ذلك يصرون على الكلام فى الفلسفة (العبيطة) ولا يعرفون أن الفكر الذى لا يساير المرحلة ويخدم حاجات المجتمع ويعمل على تقدمه مآله إلى مزبلة التاريخ. وكل الدراسات فى الكليات النظرية والعملية للحصول على درجات الماجستير والدكتوراه فى مصر مآلها إلى مزبلة التاريخ. وقد يقول البعض إن هناك نتائج كثيرة مثمرة ظهرت فى هذه المجلدات الموضوعة على الأرفف فى مخازن الجامعة ولكنى أقول لو كان هذا صحيحًا لأفصحت عن نفسها، لا يمكن القول أن باحث فى الصيدلة توصل إلى عقار جديد، ولا تستغل شركات الأدوية هذا الاكتشاف، ولا أظن أن باحث فى الهندسة اخترع آلة جديدة مفيدة فى عمل ما - ولم تسارع الشركات الهندسية لتصنيعها واستغلالها.

والمثال بسيط أمامنا، يستخدم مريض السكر شريطًا ورقيًا للكشف عن السكر فى البول أو الدم، ومازال هذا الشريط يستورد من ألمانيا، ولم يفكر باحث فى الصيدلة أو الكيمياء أو الطب فى صناعة هذا

الشريط فى مصر. ويحدث الشىء نفسه مع الشريط الذى يكشف عن الأس الهيدروجينى (درجة تركيز أيون الهيدروجين فى المحلول). ثم إننا مازلنا نستورد الأوانى الزجاجية المستخدمة فى المختبرات، وكنا فى الخمسينيات نستوردها من الهند.

كيف نقاوم، وبماذا نقاوم والحال هكذا.. وزارة البحث العلمى وأكاديمية البحث العلمى عجزتا عن التخطيط لسياسة ناجحة لتطوير البحث العلمى فى مصر - ثم إن الاهتمام أصلاً بتكوين خبراء فى رسم السياسات العلمية غير موجود. ويعجز من يبحث فى فلسفة العلم فى الجامعات المصرية أن يصل إلى المفهوم الحقيقى لفلسفة العلم التى تخدم قضايا التقدم العربى، فلسفة العلم تعنى الحديث عن العلم والمشروع العلمى، وعلاقة العلم بالتقنية، هذا المشروع الذى لا يدرك أبعاده من يدرس فلسفة العلم وحصروا أنفسهم فى نظريات المعرفة واختصروا فلسفة العلم فى إطار المنهج، مع أنه لا يوجد حقيقة منهج واحد يتبعه كل العلماء، وكل عالم يتبع أسلوبًا خاصًا به، ربما يتوصل إليه عن طريق الصدفة، أو طريق التجربة والخطأ، وفى الأساس لا يجب أن نهمل قوة الحدس عند المبدعين.

قلنا ومازلنا نقول أن ما يقال فى مسألة المنهج كلام عقيم يرد عليه الآن الكثيرون ممن يتكلمون فى شئون العلم بوجه عام ولا نقول الفلسفة العلمية، لقد تحول الأمر إلى مجال أوسع لندخل فى مجال (الدراسات الاجتماعية للعلوم).

إذا كان علماؤنا عاجزين عن فهم طبيعة التقدم فكيف يكون حال العامة؟ هؤلاء الذين يعيشون فى الأرض فسادًا وهم لا يعلمون. إنهم لا يجدون الهداية والإرشاد لا فى وسائل الإعلام المنحرفة عن روح العصر، ولا فى المساجد ولا النوادى. ولا فى أى مكان المفروض أن يؤدى خدمة التوعية. الإعلام يذهب إلى الدعاية والترويج إلى عادات وأفكار يظن

المسئولون عنه أنها من سمات التقدم، أغانى ساذجة وسطحية، وأفلام هزيلة تدور معظمها حول مفاسد المجتمع وخاصة نهب الأموال العامة والتجارة بأرواح الملايين ويث الكثير من أفلام الغرب وإنتاجه الإعلامى. وكثيرًا ما يغالى الإعلام المصرى فى القرينة على حساب القيم الأصيلة والثقافة الحية للمجتمع.

وليس هناك خط متواصل لإرساء ثقافة عربية أصيلة، بل أن ما يقابلنا به الإعلام يتمثل فى طفرات غريبة، وبرامج تظهر فى المناسبات الوطنية ثم تختفى، وأهم ما يلفت النظر أن توجه الروح الوطنية بالريموت كنترول، فتارة يذيع الإعلام أحاديث وبرامج عن المعارك التى خاضها الشعب المصرى فى كفاحه من أجل الاستقلال والنهضة تصاحبها أناشيد وطنية حماسية، وكلمات تنطق عن الثورة والكفاح، ثم ما يلبث فى زمن قصير جدًا لا يتفق مع ضخامة الأحداث التى نمر بها أن يتحول إلى برامجه العادية التى تهدف إلى التسلية الرخيصة، وعزل المواطن عن كل الأحداث السياسية والمصيرية التى يمر بها الوطن العربى. والإعلام موجه بوجه عام لخدمة المصالح الاستعمارية فى المنطقة، فإذا نادت القوى الوطنية بمقاطعة البضائع الأمريكية، يأتى الإعلام بمتحدثين من رجال باعوا أنفسهم للشيطان ليقولوا للجمهور أن هذا يضر باقتصادنا ويخلق طبقة من العاطلين، إذا كيف نقاوم والحال هكذا، إعلام مسلط على أدمغة الناس، يعمل لهم غسيل مخ، والجمهور بغريزته يعى أن هذا ليس فى مصلحته، وهو يقول فى قرارة نفسه «الناس دول باعونا»، وليس هناك أمل فى أى إصلاح وهذا يزيد فى سلبية الناس وانعزالهم، هذه الانعزالية والسلبية التى ورثها المصريون منذ قديم الزمان. لن أقول من العصر الفرعونى، ولكن ربما يكون الاستعمار اليونانى والرومانى السبب الأساسى لانعزال المصريين عن الحياة العامة، إذن المرض مزمن. ولم يأت حتى الآن قائد أو مفكر ليضع

الوصفة الشافية من المرض. كانت هناك فرصة فى ثورة يوليو لنقل هذا المجتمع إلى مجتمع عصرى متقدم ولكن للأسف جموع الشعب المصرى الغلبان – لم تنجح فى حماية الثورة ومبادئها وإنجازاتها.

والصفوة خانت مبادئ الثورة، وكما قال عبدالناصر نحن نعمل ثورة بدون ثوريين واشتراكية بدون اشتراكيين، خانوا المبادئ، وخذلوا الصرح الصناعى الضخم الذى أقامته ثورة يوليو، خانوا القومية العربية، وراحوا يتمرغون من جديد فى أحضان أسيادهم الجدد ورجع النفعيون ومدعو الثقافة لترويج ثقافة الإباحية والفساد تحت اسم ثقافة التنوير.

كيف يقاوم الشعب المصرى، وكل من بيده السلطة السياسية والثقافية والإعلاميةخونة بمعنى الكلمة؟ كل من يصادق أمريكا ويتغاضى عن مقاومة عدوانها الأثيم على العرب والمسلمين خائن، وأهداف أمريكا واضحة: استعمار منطقة الشرق الأوسط وضرب كل مقاومة فيها. ويظن البعض أنه بصداقته لأمريكا ورضوخه لها سيفلت من عقابها. ويذهب هؤلاء فى تقديم التنازلات شوطًا بعيدًا، ومع ذلك لا تكف أمريكا عن ابتزازهم ومطالبتهم بمزيد من التنازلات وهم يرضخون لأنهم انزلقوا، ولا يعرفون طريقًا للتراجع، وهم لا يثقون فى شعوبهم وقدراتهم على الصمود فى وجه أمريكا.

لا يشعر الجالس على عرش مصر، أن باستطاعة الشعب المصرى أن يجعل أمريكا تركع إذا أعطيت له حرية الحركة، أمريكا لن تفكر فى ضرب مصر أبدًا، لأنها تعلم حقيقة ما لا يعمله الحكام المصريون بأن وزن مصر فى المنطقة العربية بصرف النظر عن الخيانة لا يسمح لأية قوة خارجية أن تضربها. وخاصة إذا كان الحاكم المصرى يقف فى صف الجماهير العربية، هكذا قال لنا التاريخ الحديث فى حالة الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦. كيف تحرك العرب – والقول هنا للأجيال الشابة ولعلهم يتعظون، تحرك العمال فى الخليج العربى فقطعوا أنابيب

إمدادات النفط إلى الغرب، وامتنعوا عن تفريغ السفن الأمريكية فى الموانئ العربية، وقامت المظاهرة ضد الغزو الثلاثى فى كل أنحاء الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. وانتصرت مصر فى معركة تأميم القناة – وسنقفز فوق أحداث هزيمة يونيو ١٩٦٧، فالعرب فى أثنائها لم يتحركوا لأن وقع الهزيمة أذهلهم وشل حركتهم، ومع ذلك اجتمع الرؤساء العرب فى الخرطوم، وساندوا جبهة المقاومة وأمدوها بمائة مليون دولار، فضلاً عن إصدار قرار اللاءات الثلاثة، ثم نأتى إلى حرب ٧٣ لنستعرض الوقفة القومية التى وقفتها الأمة العربية، ودخل سلاح البترول المعركة لأول مرة ضد القوى الأجنبية. وكنت أثناءها فى إنجلترا، ورأيت كيف أثر حظر تصدير البترول على أوروبا، استغل عمال مناجم الفحم فى إنجلترا النقص فى إمدادات البترول، فأضربوا مطالبين بزيادة الأجور زيادة كبيرة، ورفض رئيس وزراء بريطانيا وقتئذ «هيث» الإذعان لمطالب العمال الذين استمروا فى إضرابهم لمدة أربعة أشهر، مما أدى إلى توقف العمل بالمصانع، ومعاناة المستشفيات لانقطاع الكهرباء، وزادت الأحوال سوءًا، وانهزم «هيث» فى معركته مع العمال، فاضطر أن يقدم استقالته فى النهاية، وهكذا كان تأثير حظر تصدير البترول قويًا، وللأسف الشديد طالب السادات الذى كان قد اتخذ قراره بالانحياز لأمريكا تمامًا: من الدول العربية أن ترفع الحظر، ودعا إلى اجتماع فى الرياض بينه وبين هوارى بومدين والملك فيصل لاتخاذ قرار بشأن رفع الحظر عن تصدير البترول، رفض الملك فيصل العظيم عقد هذا الاجتماع ولكن السادات وبإصراره العنيد نجح فى عقد الاجتماع بالجزائر، دخل الثلاثة رؤساء إلى قاعة الاجتماع، وخرجوا بقرار رفع الحظر، ولا يعلم أحد كما يقول وزير النفط السعودى السابق زكى اليمانى ما دار داخل غرفة الاجتماع.

حاكم أو حفنة من الحكام يقررون مصير هذه الأمة ويأخذون القرارات الحاسمة بالنيابة عنها، ويبدو أن هؤلاء الحكام شريحة من

طبقة عريضة تعمل ضد مصلحة شعوبها. ولو أن أفراد هذه الطبقة العريضة خرجوا من بين صفوف المعدمين إلا أنهم نسوا تمامًا أصولهم، وكونوا فيما بينهم طبقة برجوازية عفنة.

مع قيام النهضة العربية الحديثة، فوجئت الأمة العربية بجحافل الاستعمار، بعد أن وقف العرب مع الإنجليز ظنًا منهم أنهم سيساعدوهم فى التخلص من الحكم العثمانى ونيل استقلالهم، وكانت النتيجة أن تقاسم الإنجليز والفرنسيون حكم البلاد العربية بدأت المقاومة العربية للاحتلال وأفرزت صفوف المقاومة قيادات تولت مقاليد الحكم فى البلاد التى استطاعت أن تطرد الغاصب الأجنبى، ولكنها سرعان ما راحت تسير فى أذيال المستعمرين، تتعاون معهم ضد مصالح الشعوب ولضرب القوى الوطنية المخلصة، وإزاء هذا الوضع الجديد قامت الثورات فى بعض البلدان العربية لتتخلص من الفئة المتسلطة الجديدة. وللأسف لم تجد الثورة قيادة لها قادرة على خوض المعركة إلا ضباط الجيش، وانتقلت هذه الدول إلى أوضاع مترددية أخرى، فظلت الانقلابات تتعاقب فى سوريا - والعراق. حتى استولى حافظ الأسد على الحكم فى سوريا، وصدام حسين فى العراق. واستمر حكم حافظ الأسد حوالى ٢٣ عامًا، ترسخت فى أثنائها سطوة الطبقة الجديدة التى لم ترغب أبدًا فى التخلى عن مكاسبها، وفى مصر على الرغم من الزخم الهائل الذى قدمته ثورة يوليو لتغيير وجه الحياة الاجتماعية، فإن وجود الطبقة الجديدة أدى إلى أخطاء جسيمة، وتستمر الطبقة الجديدة فى سوريا ومصر فى تأييد شخص ما ترى فى وجوده الحفاظ على مكاسبها. وهى فى مصر الآن تتجه نفس اتجاه طبقة المنتفعين فى سوريا فى محاولتها لتوريث الحكم كما حدث فى حالة توريث الحكم فى سوريا.

وما يحدث فى الجزائر هو عنوان آخر للطبقة البرجوازية التى تكونت من خلال جبهة التحرير، ومنهم قادة الجيش والبوليس، الذين

ألغوا نتائج الانتخابات في الجزائر بعد أن نجح فيها الإسلاميون، ولم يكن المبرر لإلغاء الانتخابات كما يقول العلمانيون الجدد في الوطن العربي هو الخوف من تسلط حكم الاستبداد الإسلامي - وراحت ادعاءاتهم تغطي الهدف الأساسي من إلغاء نتيجة الانتخابات، وهو استمرار بقاء الطبقة المستفيدة.

ولقد بانت خيانة القيادات الجديدة التي تكونت في فترة الكفاح ضد الاستعمار في حالة العراق، حيث رجعت هذه الجماعة التي كانت تعيش في الغرب على دبابات أمريكا لتحكم العراق، ورضيت أن يكون أفرادها أعضاء في مجلس حكم يخضع تمامًا لأوامر أمريكا، إلا أن المقاومة في العراق اضطرت أمريكا لتغيير التكتيك وليس الأهداف فزعمت أنها ستنقل الحكم إلى العراقيين في يوليو ٢٠٠٤ ولكن من خلال عملية مظهرية، فلا أحد من هذه الطبقة الفاسدة يطالب الولايات المتحدة بإنهاء الاحتلال.

لم تكن الهزيمة الكبرى للعرب نكبة فلسطين، ولا في هزيمة يونيو، ولا في غزو العراق للكويت، فكل هذه الكوارث ما هي إلا أعراض لوجود الخيانة بين صفوف الأمة العربية، هؤلاء الخونة الذين لم يدرك الشعب العربي حتى الآن أن معركته الأولى معهم، وليست مع الاستعمار الجديد بقيادة أمريكا، معركة العرب الأولى تبدأ مع مقاومة هؤلاء الخونة والأهم من ذلك البحث عن قيادات جديدة أكثر إخلاصًا وتفانيًا وقادرة على تنظيم صفوف الشعوب العربية.

ولا نبالغ في حكمة القيادة الجديدة وقدرتها على انتشال الأمة من الوضع المتردي الذي هي عليه الآن طالما يظل تفكيرنا التقليدي سائدًا، فلا أمل يرجى من وراء أي تغيير في الأشخاص، فالقيادات ستكون على نفس النمط القديم، ربما تقل مظاهر الفساد لفترة من الوقت، ولكن الإدارة السيئة ستستمر، وبعدها يترعرع الفساد من جديد.

ولنأخذ مثلاً الجامعات، الحاكم مهما كانت صورته لا يتدخل فى سياسة البحث العلمى فى الجامعات، وتبقى صياغة سياسة البحث العلمى لرئيس الجامعة ومجلس إدارتها، وحتى الآن لم تخطط أى جامعة مصرية سياسة عامة للبحث العلمى، وتترك الأبحاث لاختيار أعضاء هيئة التدريس يفعلون ما يريدون، وفى الغالب يفعلون ما يؤهلهم للترقية دون الالتفات إلى المجتمع وخدمته. إن التقدم العلمى حدث فى كل البلاد المتقدمة دون وجود أية علاقة جدلية بين التقدم ونظام الحكم. حدث التقدم فى أوروبا فى ظل كنيسة تناهض العلم وحكم مستبد فى كل أنحاء أوروبا، وحينما قامت الثورة الفرنسية أعدمت لافوازييه مؤسس الكيمياء الحديثة، وتحت الحكم النازى اضطهد العلماء المعارضون، واضطر الكثير منهم إلى الهروب والنزوح إلى دول أوروبية مجاورة وذهب أينشتاين إلى أمريكا لينصح الرئيس مع زميله فيرمى بصناعة القنبلة الذرية قبل أن يصنعها الألمان. وتحت الحكم الشمولى تقدم العلم فى روسيا. وأطلق الاتحاد السوفيتى القمر الصناعى سبوتنيك قبل أن تصل الولايات المتحدة إلى صناعة قمرها الأول وأحرزت الصين تقدمًا كما فعلت النمور الآسيوية وهى كلها تحت حكم ديكتاتورى. وعلى الجانب الآخر أحرزت الهند وباكستان تقدمًا علميًا ملحوظًا، ودخل البلدان المعسكر النووى، وأحرزت بلاد أمريكا اللاتينية تقدمًا فى المجال العلمى والتقنى بصرف النظر عن نوعية الحكم، ويبدو كما تقول التقارير إن كوبا أحرزت تقدمًا ملموسًا فى مجال الهندسة الوراثية.

علينا أن نمضى فى شوط طويل حتى نحقق الممارسة الديمقراطية، ولكن علينا أن نبدأ، ولا يقول عاقل إننا لن نحرز تقدمًا فى العلم طالما أن الحكم بهذه الصورة الفوضوية، نحن كما يقال نعيش فى دولة مؤسسات وفى الحقيقة لا توجد هذه الدولة، فنواب الشعب صنيعة القيادة السياسة، التى يجهل الشعب من هم أفرادها، وكيف تستمر منذ

حكم جمال عبد الناصر وحتى الآن، كل مؤسسة فى مصر يديرها فرد، الوزير فى الوزارة له الكلمة المطلقة، والمحافظ هكذا، ورئيس مجلس الشعب ينهى النقاش فى أى موضوع فى أى لحظة يريدها، ووكيل الوزارة يتصرف بمفرده خارج القانون ولكن فى حدود معينة وهو يعرف جيدًا المسافة بينه وبين الوزير فى اتخاذ القرارات، وعلى أى حال المساحة أمامه مازالت فسيحة لاتخاذ ما يراه، وغالبًا ما تصدر قرارات المسئولين مخالفة القوانين، ويذهب المتضررون إلى المحاكم، وتصدر الأحكام لصالحهم، ولكن المسئولين فى دولة المؤسسات الغائبة لا ينفذون أحكام القضاء. وترجع مرة أخرى إلى المجلس النيابى - المفروض أن يصدر القوانين ويحافظ عليها - كم مرة صدر حكم المحكمة الدستورية بحله. وكيف أصبح هذا المجلس، مجلس تجار المخدرات وناهبى البنوك والهاربين من الخدمة العسكرية وكيف يكون قيادى كبير فى الحزب الوطنى من أكبر مهربى الآثار فى مصر، وكيف يحتكر أحمد عز ٦٥٪ من إنتاج الحديد فى مصر.

والقيادة فى الجامعات ومراكز البحث غير ديمقراطية وربما نطالب هنا بأن يصير أساتذة الجامعات على انتخاب العمداء ورؤساء الجامعات - وبقدر النجاح فى الحصول على هذا المطلب ربما تكون هناك فرصة فى إصلاح الجامعة ومراكز البحوث - ومع ذلك يجب أن تتحول القيادة إلى قيادة جماعية. هناك احتمال كبير أن الرئيس المنتخب يخضع لإرادة الجماعة، ومع هذا يمكن أن نقول إنه حتى مع انتخاب القيادات تظل أزمة الديمقراطية قائمة، فالناس لم يتعودوا الحوار والممارسة الديمقراطية وعملية اتخاذ القرار، يمكننا أن نكتب فى كتبنا لعلوم الاجتماع والفلسفة والسياسة عن وسائل الإصلاح ونعين الأخطاء وأسباب التخلف ومع ذلك لسنا معنا العصا السحرية التى تفرض التغيير.

obeikandl.com

فلسفة الكلمات وفلسفة الأفعال

قد تكون اليوتوبيا خادعة للمثقفين ولكن كيف للإنسانية أن تتقدم دون رؤية عالم أفضل، بدون شك العالم أفضل مما كان، ولكن تظل اليوتوبيا غامضة لم تتحقق، والعالم الآن يتكلم عن سقوط الأيديولوجيا ونهاية اليوتوبيا - وهل يستمر الكلام عن المساواة والحب والعدل فى عالم تفوح فيه رائحة الكراهية والظلم والاستبداد، والكلام عن حوار الحضارات يبدو ساذجًا أمام الفلسطينى الذى يقابل قوى القهر البالغة السوء بصدور عارية، ولا يمكن لحماس ولا حزب الله أن يفكرا ولو لحظة فى هذا الحوار.. ونظل نفكر الحوار مع من؟ - مع هؤلاء الذين يسعون إلى مواجهة السيطرة والعنف، إنها الجماعات المؤمنة بدور لها فى وقف زحف الحكومات المتحدة المشاركة فى اتفاقيات التجارة العالمية، وهى تظن أنها تصنع مستقبل هذا العالم، بطريقة أفضل أو أسوأ ليس المهم، طالما تزدهر وتتضخم وتكتسح الاحتكارات العالمية.. أمام كل هذا يقف المناهضون للعولمة - وهؤلاء لأسباب مازلنا نجهلها تعاطفوا مع قضية الشعب الفلسطينى ومع شعب العراق.

هؤلاء يمكن التحاور معهم، بل الدخول معهم فى صف واحد، إنهم قوى تدعم مقاومتنا، ويبقى السؤال كيف نصل إليهم، ونشارك معهم؟ والمشاركة تعنى ألا تأخذ دون أن تعطى، والعطاء يتطلب فهم القضايا العالمية التى تشغل بال هؤلاء. أن المشاركة تعنى مساندتهم فى قضاياهم كما هم مهتمون بالدفاع عن قضايانا.

كان علينا أن نفهم العالم جيدًا بعد سقوط الاتحاد السوفيتى واختفاء الشيوعية - ماذا حدث - زاد اشتعال الحروب الإقليمية، وانتشار أسلحة

الدمار الشامل، وتحكم فى سياسة أمريكا اليمين المتطرف وكان علينا أن نقرأ صمويل هنتجتون جيدًا، وللأسف لم نفعل - الصراع تنبأ به بل دعا إليه، وحفز أمريكا على معاداة الحضارات الشرقية وخاصة الحضارة الإسلامية.

ويقول كابلان:

إن الديمقراطية ذاتها أصبحت منظورًا مشكوكًا فيه لمعظم أرجاء العالم، فهو يكتب أن فترة ما بعد الحرب الباردة لفرض الديمقراطية تخلو من منطق معقول «نحن نصوب البنادق إلى رؤوس شعوب العالم النامى ونقول لهم تصرفوا كما لو أنكم مررتم بتجربة الاستنارة الغربية، تصرفوا كما لو أن ٩٥٪ من شعوبكم متعلمون تصرفوا كما لو أنه لا توجد بينكم صراعات عرقية وإقليمية دامية».

عند كابلان ومراقبين كثيرين فإن انتصار الديمقراطيات الغربية فى الحرب الباردة لم يؤد فى النهاية إلا إلى الغم والاكتئاب.

وإذا وضعنا العلاج لأى من الأمراض التى تعانيها، فكأننا نحلق فى سماء اليوتوبيا بعيدًا عن أرض الواقع، ولقد اتهمت اليوتوبيات دائمًا حتى اعتقد الكثيرون فى نهايتها بهذا التحليق، وانتهى الناس عن الكلام عن الأحلام الوردية، وهم يبحثون عن تحسين أوضاعهم الذاتية بالتفكير فى إيجاد وظيفة أو مهنة لكل منهم.

نحن لا يجب أن نيأس كما فعل مفكرو الغرب فتكلموا عن انهيار المجتمع الغربى، وعدم العدالة والفردية فيه ولكنهم ربما كانوا يدقون الجرس لتعديل المسار فلحوا أم فشلوا، يظل المفكرون فى الغرب غير راضين عن الأفكار السابقة، وقد أسقطوا الحكايات الكبيرة وناقشوا التفاصيل العملية للواقع المحلى، إنه لعمل كبير للفيلسوف أن يعمله. هل هناك من يرغب فى دراسة أحوال الأمة على مدار الخمسين عامًا الماضية بأدق تفاصيلها، هل هناك من يرغب فقط فى دراسة أحوال

الجامعات؟ ربما فى دراستنا المتجزأة حول المجتمع المصرى تقترب من كيان الفرد - الفرد نفسه لا يشعر بأن أحد درسه هو شخصيًا وبين له عيوبه وأخطاءه - غالبًا ما يتهم كل فرد المجتمع والقيادة الآخرون دائمًا هم السبب فى تخلف المجتمع - الآخرون دائمًا هم الجحيم كما قال سارتر، لم يضع أحد نفسه فى السياق، القيادات متخلفة لأنها تأتى من مجتمع متخلف، وتغيير القيادات لا يفيد كثيرًا، فالقيادات الجديدة لها نفس صفات القيادات القديمة، وعلى المواطنين أن يواجهوا الحقيقة إنهم لا يعيشون كمجتمع، إنهم أفراد غير منتمين ولا ينتسبون لجماعة. البعض يحاول الفرار من هذا الواقع الأليم، وخاصة الجماعات الدينية مسلمين أو أقباط، ومن خلال الكنائس والمساجد بنوا مشاريع جماعية، للعلاج الطبى، والتعليم وربما لخدمة المرأة من خلال إنشاء دور للحضانة - وهى مشاريع ناجحة لحد كبير - ومعظم هذه المشاريع تطوعية وهى تحتاج إلى تبرعات أهل الخير والصلاح.

المجتمع المدنى إذا هو الأساس فى عملية التغيير وهو يعتمد فى الأساس على العمل التطوعى والبذل والعطاء، ولا يمكن أن نقول إن الناس فى مصر غير مستعدين للبذل والعطاء، الكثيرون مستعدون إذا وثقوا فى قيادات العمل المدنى، وبالتالى يبدأ العمل بتشجيع الناس على التجمع واختيار أصلح القيادات من بين صفوفهم.

وكنا نتمنى لإرضاء المتحمسين لفكر الغرب أن نواصل المسيرة ونحن نغوص فى فلسفات الغرب نغترف منها ما يقوله الغرب لإصلاح مسارنا الحضارى ولكن تبين لنا أن أفكار الغرب تستخدم لمصلحة سيطرته وإبراز قوته، وهى فى الواقع لا تعكس المزاعم التقليدية عن المساواة والعدالة والحرية والسلام والحب، ويقول رورتى «لا أظن أننا نحن الليبراليون نستطيع أن نتخيل مستقبلاً للكرامة الإنسانية والحرية والسلام، فليس لدينا إحساس واضح بكيفية الخروج من العالم الواقعى إلى هذه العوالم

المحتملة نظريًا وبالتالى ليست لدينا فكرة واضحة عما يجب أن نعمل من أجله».

ولكن لماذا نغوص فى بحر الغرب العميق؟

والمفكرون الغربيون ينصحوننا باتباع طريق آخر، فى كتابه الغليظ يكتب ميشيل وولزر عن كسوف النمط البطولى فى الفلسفة أى البحث عن الحقائق الكبرى، ويدعو بالأحرى إلى منهج «الحد الأدنى» وفيه يستجيب النقاد للأحداث العادية والمحلية «بالتفصيل على نحو غليظ واصطلاحى» ويقترح «إننا يجب أن نتفهم هذا الجهد بأقل مشابهة لما يفعل الفلاسفة، وبأكبر مشابهة ممكنة لما يفعله الشعراء والروائيون والمهندسون» ويوافق رورتى ويقول لنا «إن الساخرين الليبراليين يتصرفون عن «الأمل الاجتماعى» إلى «المهمة الاجتماعية» نحو «الاكتمال الخاص» وفى هذا المنهج فإن ما هو مهم هو الروايات والمجموعات أى تلك المساحات التى تتخصص فى تقديم أوصاف كثيفة لما هو خاص وخصوصى».

والأوصاف الكثيفة تعنى رسم صورة متعددة الطبقات لأحداث مفردة، وهى تقلل من أهمية النظريات الطموح التى تتناول قضايا عريضة، وتزيد بدلاً منها أهمية الملاحظات المتواضعة التى تصف وقائع صغيرة وهى تشجع على الولوج إلى مادة الحياة اليومية، بما يؤدى إلى قيام تاريخ وأنثروبولوجيا أكثر اقترابًا من الأدب منها من العلم البارد.

نحن إذن ننتقل من الفلسفة إلى الأنثروبولوجيا نسعى إلى تفاصيل أدق فى حياتنا اليومية، ربما هذا الطريق لاكتشاف العيوب ومحاولة الإصلاح يتطلب أن يكون الفكر أكثر عمليًا.

احتفى ماكولاى بإصرار ببيكون الذى حكم على الفلسفة حسب ثمارها أو نتائجها العملية وقدرتها على تحسين شروط الحياة، وفق هذا المحك، أعلن بيكون قطيعته مع الفلاسفة التقليديين الذين يغزلون على

عجلات تصورية بدلاً من أن يستخدموا عجلات حقيقية.

وكتب ماكولاى «كنا نفكر أحيانًا فى حكايات مسلية يلتقى فيها أحد أتباع الرواقى الإغريقى إبيكتيتوس وأحد أتباع بيكون ويرتحلان معًا.

«وبلغا قرية كان الطاعون قد بدأ ينتشر فيها فوجد البيوت موصدة والاتصالات ممنوعة والمرضى معزولين والأمهات يبكين أطفالهن فى هلع، راح الرواقى يطمئن الناس الساخطين ويقول: إن الإنسان العاقل لا يرى سوءًا فى الطاعون، وبالنسبة له فإن المرض والتشوه والموت وفقدان الأصدقاء ليس شرورًا أما البيكونى فيلتقط مبضعًا ويمضى فى تطعيم الناس».

«ثمة هوة تفصل بين «فلسفة الكلمات عن فلسفة الأفعال» وما تفاخرت به الفلسفة القديمة من إصلاح العقل أو الأخلاق لم يتحقق وقدامى المفكرين وعدوا بما هو غير عملى، واحتقروا ما هو عملى، وملأوا الدنيا بكلمات طويلة ولحى طويلة ثم تركوها جاهلة وشريرة كما وجودها».

لماذا تخلفنا ولماذا نظل متخلفين؟

هذا سؤال المقاومة الأساسى.. مقاومة التخلف.

من العبث أن أقول أننى سأجيب على هذا السؤال الكبير فى هذا العمل - ولكن أدعو الجميع للتحاور معى فى محاولة إيجاد الإجابة عن السؤال.

ونطرح سؤالاً آخر لعل فيه البداية لحل المشكلة ويقصر الطريق حتى لا نذهب بعيدًا فى أعماق التاريخ تدرس ونتقصى عن أسباب التخلف وربما نصل إلى نتيجة أو لا نصل - السؤال لماذا فشلت تجربة محمد على؟ - يقول البعض أن القوى الأجنبية بعد أن وجدت أن محمد على خطرًا على مصالحها فى الشرق حاصرته وحطمت قواه الحضارية البازغة، ربما يكون هذا صحيحًا، ولكن لماذا لم يحدث هذا مع ألمانيا

واليابان وإيطاليا، وكلها دخلت فى حرب مع الغرب وانهزمت وتحطمت بناها التحتية - لكنها رجعت تسترد عافيتها وتصبح قوى عملاقة فى المجالات الصناعية والتقنية، وبعد أن تعرضت النمور الآسيوية لهزة اقتصادية عنيفة، ربما يكون الغرب المتسبب فيها راحت تعيد من جديد قوتها الاقتصادية، والصين وهى تتعرض لتهديدات متواصلة من قبل الولايات المتحدة بالذات تواصل طريق تقدمها، وتحقق معجزة بكل معنى الكلمة.

ويطرح سؤال آخر، ما العلم الذى تركه علماء عهد محمد على؟ انهارت صناعات محمد على، هذا صحيح، لأنها لم تقم على أساس علمى، فهى كانت تقنيات مستوردة. ولم تتكون فى عهد محمد على جماعة العلماء الذين يقع على عاتقهم مسئولية تطوير العلم والتقنية - وأى سبيل كان يمكن أن يسلكه نظام محمد على لإنشاء هذه الجماعة؟ لم يكن فى مقدور محمد على مهما كانت نياته الصادقة أن ينشئ هذه الجماعة، وتاريخ العلم يدلنا على أن فئة العلماء فى كل أنحاء العالم ظهرت بعيدًا عن الحكم، صحيح أن الحكام يشجعون العلماء ولكنهم أبدًا لم يخلقوهم - وهكذا استمرت الحالة العلمية فى أوروبا.

بُنيت النهضة العلمية فى أوروبا على أكتاف أفراد لكن الأساس الذى يجب أن تعترف به كحافز أصلى للعلم هو استخدام العقل، وكان للإغريق فضل كبير فى هذا، فإن العادة الغربية فى التفكير فى الكون من دون الاعتماد على ما هو خارق للطبيعة قد بدأت مع الإغريق.

وحتى الإغريق لم يكونوا بداية حقيقية قد تعلموا من الحكماء البابليين الذين اعتمدوا بدورهم على معرفة ما كان يمثل بالفعل عشرة أو خمسة عشر قرنًا من الحضارة التى ترجع إلى السومريين الذين كانوا أول من درس النجوم وأول من بدأ فى تتبع حركات الكواكب.

ولو استمرت التفسيرات للإجابة على الأسئلة على هذا النحو فسوف

نتجرف حتى نصل ربما إلى بداية الكون، وهذا ما لا يتحمله أى عمل.. وسنكتفى فقط بالإشارات إلى بعض المقارنات بين الجهد العلمى فى مصر الحديثة وبين نشأة النهضة الحديثة فى أوروبا، ربما نشير إلى أفراد أو أحداث ولكن السياق الرئيسى هو حالة العلم فى مصر منذ محمد على.

إذا لم تتكون طبقة العلماء كما تكونت فى أوروبا لم ينشأ بيننا جاليليو - نيوتن - بسكال - هيوم - بويل - لافوازييه - باستير - هيزنبرج - أينشتين - ماكس بلانك - بوهر - فاراداى، أسماء كثيرة تصادفنا فى دراسة العلوم فى الجامعات.

لماذا لم يتكون مثل هذه الجماعة من العلماء فى عهد محمد على أو بعده؟ ربما لأن من جاء بعد محمد على لم يعط نفس الأهمية للعلم كما أعطاها محمد على - والعلماء عندنا لا يظهرون ذاتيًا كما ظهروا فى أوروبا بعيدًا عن التكليف الرسمى.

وانحسرت النهضة العلمية التى بدأها محمد على وظلت فى كمون حتى إنشاء الجامعة المصرية، فى عام ١٩٢٥ لا يمكننى أن أصف آلية الالتحاق بكلية العلوم التى أنشئت فى بداية إنشاء الجامعة، ولكن ما أعلم أنه فى بداية الخمسينيات كان يتوجه الطلبة إلى الكلية حسب المجموع فى امتحان الشهادة الثانوية - وكثيرون وأنا ضمنهم لم يكن لديهم أية رغبة فى دخول كلية العلوم، فكل ولى أمر كان يحلم أن يدخل ابنه كلية الطب ليتخرج طبيبًا. وذلك لم تدرة مهنة الاشتغال بالطب من دخل طيب. وعلى الرغم من أننا كنا ندرس فى الثانوية العامة مواد العلوم لم نكن نجد أنفسنا مدركين لجمال هذه المواد - كما أدركتها أنا الآن على الأقل، ولم نكن نفهم مفهوم العلم الحقيقى وعلاقته بالمجتمع والاقتصاد والسياسة وأقول وأنا فى أشد الأسف، إننى لم أكن أعلم بأبعاد الكون الفسيح، ولا بتركيب الدنا، ولا بطبيعة الموجات

الكهرومغناطيسية - ولا بالرياضيات اللازمة لفهم الكيمياء الفيزيائية - وكثير من هذه الأساسيات العلمية لم أكن أعرفها حتى بعد أن حصلت على الدكتوراه، وزاولت أبحاثى - لم أعلم الكثير من طبيعة الظواهر حولنا وأسرار العلم إلا بعد أن هدانى الله لدراسة المواد الاجتماعية ووجدت عندى رغبة جامحة لدراسة مشكلات التقدم العلمى - ولماذا نحن متخلفون - وجاء هذا التحول بمجرد الصدفة البحتة - حتى وجدت نفسى فى النهاية منغمسًا فى قراءة كل المواد الاجتماعية وزاد شغفى بقراءة المواد الاجتماعية، وأنا ألمس مهزلة التعليم والبحث العلمى فى الجامعات المصرية.

وكانت تشغلنى هموم السياسة كثيرًا ومنذ نعومة أظافرى وأنا أهتم بقراءة الصحف والمجلات ولست متذكرًا إن كنت أتابع الأحداث العالمية أم لا، ولكن مع ثورة يوليو زاد شغفى بالسياسة، ولم يكن السبب الرئيسى أحداث الثورة فى بدايتها أو مبادئها الستة التى أعلنتها لقد بدأ اهتمامى بالسياسة منذ أن كنت طالبًا فى الثانوى، وكنا نخرج فى مظاهرات ضد الإنجليز والسراى - وحقيقة كان اهتمامى بالسياسة عفويًا دون أن أقرأ كتابًا فى الأيديولوجيات أو الفلسفات ماركسية أو غيرها، ولكنى كنت قارئًا جيدًا لإحسان عبدالقدوس، ويوسف السباعى وعبدالحليم عبدالله، ونجيب محفوظ وآخرين، وفى الجامعة شاركت فى المظاهرات، ولكن للأسف لم أخرج فى المظاهرة التى أشعلت حريق القاهرة عام ١٩٥٢، ولا أعرف ما السبب لعدم اشتراكى فى هذه المظاهرة.

تخرجت فى الجامعة (كلية العلوم) فى عام ١٩٥٧ وعينت معيدًا بجامعة أسيوط، بعدها بعام رُشحت لبعثة فى الاتحاد السوفيتى، قضيت هناك مدة عام ثم انتقل مقر بعثتى إلى فرنسا، التى لم أصل إليها إلا فى أكتوبر ١٩٦١، بعد مرور حوالى أربعة سنوات من قيام ثورة يوليو، كان

للثورة بالطبع تأثير كبير على أفكارنا، كانت حدثًا كبيرًا اهتز له العالم ودوى اسم مصر وناصر فى أرجائه، وتحركت الشعوب العربية كلها تتفاعل مع ثورة يوليو، وتسعى جاهدة للتخلص من الاستعمار الذى كان يربض على أقطار الأمة العربية من المحيط إلى الخليج وليس هنا المجال للخوض فى تفاصيل الأحداث السياسية فى هذه الفترة، ويكفى فقط أن أشير إلى الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، ثم الانفصال فى سبتمبر عام ١٩٦١، سافرت بعد الانفصال مباشرة إلى فرنسا فى أكتوبر عام ١٩٦١، وبدأ العمل فى أرقى معهد للعوامل المساعدة فى العالم بمدينة ليون. وفى هذه الأثناء كانت الثورة الجزائرية فى أوج اشتعالها، يتعاطف معها فريق من الفرنسيين، أما الأغلبية فى فرنسا فهى ضد الجزائريين وضد العرب بوجه عام - ليس هذا المهم فى موضوعنا الذى نحن بصدده، والأهم هو التحول الكبير فى أفكارى.

وحقيقة جاء هذا التحول من الجو الثقافى الفرنسى الذى تعرضت له فجأة.. النظام الفرنسى جميل، والحياة الفرنسية أروع والطبيعة جذابة، والفرنسيون يعشقون الجمال، ويصرون عليه دائمًا فى منتجاتهم وأعمالهم يهتمون بالشكل الختامى لأى منتج (Finishing) وأعتقد دون أى مجال للتردد أن الشعب الفرنسى من أكثر شعوب العالم ثقافة، كنت محظوظًا وأنا أكمل دراستى للحصول على الدكتوراه فى فرنسا، وفى رغبتى لإتقان اللغة الفرنسية كنت أشترى الجرائد الفرنسية وأنكب على قراءتها باهتمام كبير، وخاصة من أجل تجويد اللغة، وكانت هنا البداية لتحول جذرى فى تفكيرى، آمنت بالاشتراكية بعد أن كنت قد كرهتها فى فترة وجودى بالاتحاد السوفيتى لأسباب كثيرة، وكان أهم جريدتين أقرأهما لموند، ولموند دبلوماتيك، وكان يكتب فى جريدة لموند كاتب فرنسى يدعى إريك رولو، متخصص فى الشئون العربية، يكتب بمقدرة عن أحوال العالم العربى والأحداث الساخنة التى كان يمر بها فى هذه

الفترة، أما لموند دبلوماتيك فكانت جريدة شهرية، تناقش بعمق السياسة العالمية، وكنت فى أحيان كثيرة أجد فى مقالاتها توافقًا غريبًا بين ما يكتبه المحللون السياسيون فيها واستنتاجاتى الخاصة عن الأحداث العالمية. لم يكن إيمانى بالاشتراكية بناء على دعوة ثورة يوليو ولا الاجراءات التى اتخذتها سواء بإصدار قوانين الإصلاح الزراعى أو التأميمات التى حدثت عام ١٩٦١، كنت أعيش العالم على اتساعه، وكان الاتجاه الاشتراكى مسيطرًا والبداية كانت مع مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ مع الثوار العظام فى العالم، ماو، سوكارنو، نهرو، عبدالناصر، تيتو، كاسترو - جيفارا، بن بللا، بن بركة - العالم الثالث كله كان يتجه إلى التطبيق الاشتراكى بل إن كل المحللين الغربيين كانوا ينصحون ويباركون التطبيق الاشتراكى فى دول العالم الثالث، وكانت الأغلبية فى فرنسا تميل إلى الحل الاشتراكى، ولكنهم ترددوا فى التطبيق الراديكالى للاشتراكية خوفًا من محاصرة الدول الأوربية لفرنسا، وانهيار الاقتصاد الفرنسى.

هذا بالنسبة لإيمانى بالاشتراكية، أما فيما يتصل بانتمائى للفكر القومى، فقد جاء نتيجة لتأملاتى فى المختبر التى كنت أعمل به، وجدت به تجهيزات فائقة التطور وإمكانات لا تخطر على بال أى عربى أو مصرى بالذات لم يخرج إلى العالم الخارجى وقلت لنفسى أنه لا يمكن لأى قطر عربى بمفرده أن يصل إلى إنشاء هذه المختبرات البحثية المتقدمة، لابد للتعاون والتكاتف بين العرب لإنشاء دور للبحث مشتركة، ومن وجهة نظر الاقتصاد أيضًا لابد من إنشاء سوق اقتصادية عربية مشتركة، فلا يمكن لمصنع سكر فى تونس أن يحقق عائد ربح مناسب إذا لم يجد أسواقًا كبيرة لتصريف منتجاته، وهكذا بالنسبة للصناعات الأخرى فى الدول العربية وللأسف وحتى الآن وبعد مرور خمسين عامًا من ثورة يوليو وقيام الصناعات المصرية الكبيرة والعملاقة، لم تغز البضائع المصرية أسواق الدول العربية والإفريقية والمردود قليل، ويقال

إنها لم تنجح كثيرًا لعيوب فى الإدارة وإهمال من جهة الموظفين، فلم تكن شحنات البضائع المتفق عليها مع المستورد الإفريقى تصل فى المواعيد المحددة مما أدى إلى أن يفقد العملاء الثقة فى التجارة مع مصر.

وهكذا سارت الإدارة فى المصانع التى أقامتها الثورة، وتظل على سبيل المثال شركة إيديال إحدى شركات القطاع العام لا تطور غسالتها (الصندوق) حتى فترة قريبة جدًا حينما بدأت فى إنتاج الغسالة الأوتوماتيكية (زانوسى) وقس على ذلك فى جميع المؤسسات الصناعية فى مصر.

توصلت مصر فى عهد الثورة إلى إنتاج كثير من المصنوعات غطت السوق المصرى، ولكن مع مجىء عهد الانفتاح لم تستطع هذه المنتجات أن تنافس مثيلاتها المستوردة من الخارج، وفشلت كثير من قطاعات الصناعة فى مصر لسوء الإدارة، وتخاذل الفنيون والمهندسون فى عمليات التطوير.

مشكلة جودة الإنتاج من أهم المشاكل التى تواجه مصر ولا حل لها حتى الآن، وفى رأيى أن الحل يكمن فى إعادة تدريب المهندسين وإخضاعهم لنظام قاس فى مراكز خاصة يقوم بالعمل فيها خبراء أجانب ندعوهم ليعلموا المهندسين المصريين ومن خلال عقود طويلة الأجل، وليس فى ذلك أى مساس بالوطنية أو باستقلال مصر، فالولايات المتحدة ظلت لمدة خمس سنوات فى أوائل الثمانينيات تفتح أبواب الهجرة أمام ٨٠٠ ألف فنى، والآن ربما تفتح الأبواب لحوالى عشرين ألف من الخبرات المتقدمة فى جميع أنحاء العالم سنويًا.

الانكفاء على الذات فى هذه الحالة التى نحن عليها جريمة فى حق الوطن والمواطنين، ويجب الاستعانة ببيوت الخبرة الأجنبية لتطوير كل مؤسساتنا العلمية والصناعية، والتعليمية.

إن مشكلة تمويل البحث العلمى المثمرة قضية أساسية فى تطوير

البحث العلمى، والبحث العلمى الآن يحتاج إلى ميزانيات كبيرة، وقد يصل الانفاق على البحث العلمى فى الدول المتقدمة إلى حوالى ٢,٨٪ من الدخل القومى فى حين أننا فى مصر ربما لا ننفق أكثر من ٥ر٠٪- وهذا عامل يعمل بكل تأكيد فى تأخر تطوير البحث العلمى. ماذا لو لم نصنع القمر الصناعى المصرى وادخرنا الأموال التى صرفت فى هذا المجال لتدعيم البحث العلمى والصناعة فى مصر، وهل إذا كان هذا القمر الصناعى يدر أرباحًا هل تذهب هذه الأرباح إلى صناعة البحث العلمى، ماذا لو وفرنا الأموال التى تصرف على قوات الأمن وحولنا الملايين للإنفاق فى البحث العلمى؟

الحال فى الجامعة يسير من سيئ إلى أسوأ، والبحث العلمى يسير إلى حالة متردية - ويجب البحث عن حل لإيقاف هذا التدهور، وقد يكون الحل فى تكوين لجان شعبية، تتكون من فئات مختلفة من الشعب، المحامين، والصيادلة والأطباء والمهندسين، والصناعيين يراقبون الجامعات ومراكز البحث، ويصرون على التغيير، إذن المسألة هنا سترجع مرة أخرى إلى الممارسة الديمقراطية، ومراقبة الجماهير لشئون المجتمع وتقوية المجتمع المدنى.

على مدى هذا السرد الطويل تكلمنا ضمنيًا عن أخلاقيات التعليم والبحث العلمى، ولم نتكلم صراحة عن الأخلاقيات داخل الجامعة، وبكل صراحة الحب مفقود والأخلاق مفقودة، وقضية الانتماء يجب أن تناقش، والإصلاح فى هذا المجال صعب للغاية، لأننا لا نعرف كيف نبدأ فى الإصلاح. ومهما تكن صعوبة المعالجة لا مفر من أن نبدأ أولاً بدق ناقوس الخطر ونوضح للسادة الأساتذة العيب فى أبحاثهم، وهذه مشكلة أخرى فمن المؤهل للقيام بهذا العمل. أعتقد أن بالجامعة عددًا لا بأس به من الباحثين على قدر كبير من الكفاءة العلمية، هؤلاء لن يجدوا غضاضة فى خوض هذا المعترك الصعب فلن يجدوا أى حساسية وهم

يذكرون للآخرين عيوبهم ويكون من الأفضل أن يضموا بين كتاباتهم أخطاءهم وعيوبهم هم أولاً.

هل تعلم أيها القارئ العزيز لماذا فلحت الولايات المتحدة فى غزو العراق؟ لأنه اعتمد فى تكوين جيشه على خبرات ومعدات مستوردة ولما حوصر لمدة عشر سنوات، فقد مصادر تجديد أسلحته فأصبح عاجزًا عن صد العدوان باستخدام الأسلحة الخردة التى يملكها.

وهل تعرف أيها القارئ العزيز لماذا نقع تحت ابتزاز أمريكا، لأننا لا نملك مصادر القوة التى تتكون عن طريق امتلاك نواصى العلم والتقنية المتقدمة.

ولماذا ينهار اقتصادنا، لأننا نعجز عن إنتاج بضائع قادرة على المنافسة فى السوق العالمى.

وأخيرًا أيها القارئ العزيز لن نقاوم بدون امتلاك أسلحة المقاومة الأخلاق، الانتماء، العلم وأولاً وأخيرًا التقنية.